

كانوا يفيضون في الحديث عن المغني والمغنية، وفي الحديث عن الطهارة الذين سيهيئون الطعام، وعن الفراشين الذين سينظمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح، وعن الموسيقى التي ستأتي من القاهرة فتقضي في المدينة يومين أو أياماً تطرب الناس في الصباح وتطرب الناس في المساء، وعن المدعويين الذين سيشهدون الحفل والذين يُدعون إليه من قريب ومن بعيد، وفيهم البشاوات والبكاوات، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر.

كانوا يفيضون في هذا كله، ويجدون في الإفاضة فيه لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج. وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها، وأعي أقلها وأهمل أكثرها، وأفكر فيما لم يكن بدُّ من أن أفكر فيه، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختي ثم دفعها إلى الموت، ثم أخذ يخونها وينتهك ما كان يجب لها عنده من حرمة، ثم هو الآن ينظم الخيانة تنظيماً، ويريد أن يأتيها ويقدم عليها ويمضي فيها جهرة باسم الدين والعرف والقانون.

نعم! ولن تكون سكينه هذه الغافلة البلهاء التي لا أعرفها ولا تعرفني إلا منذ حين، لن تكون خليفة هنادي على بيت هذا الفتى وقلبه ومجونه وإثمه، ولكن التي تخلف هنادي على هذا كله ستكون خديجة! خديجة أحب الناس إليَّ وأثرهم عندي وأحسنهم مكاناً من قلبي، خديجة التي أجد عندها — وعندها وحدها — العزاء عما لقيت من شرٍّ وما احتملت من نكر وما أَلَمَّ بي من مكروه، خديجة التي أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذي أصابني في أختي وفي أهلي، هذه هي التي ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب، ومن بيته، ومن حياته كلها مكاناً ما ينبغي لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادي وأدَّت ثمنه بذلك الدم الزكي الذي أريق في ذلك الفضاء العريض!

ولم أكن أسأل نفسي كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس خديجة حين يُلقى إليها: أتتكروه وتضيق به، أم تحبه وتبتهج له؟ ولم أكن أسأل نفسي كيف تجد خديجة موقفها منها حين أحاول أن أصدَّ عنها حب هذا الرجل الآثم وأن أردها عنه، وأن أبذل في ذلك من القوة والجهد ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا، ولكنني كنت ثائرة أشد الثورة وأعنفها، مؤمنة أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون، مصممة أشد التصميم على ألا يكون مهما تتهيا له الظروف ومهما تتظاهر عليه القوى.

ثم لم أكن أسأل نفسي عن كل هذه الخواطر التي كانت تجيش في صدري وتبعث في هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم. أكانت خواطر صادقة أم كانت كاذبة؟ أكنت